

الطباعة العربيّة في أوروبا نشأتها وإصداراتها وخلفياتها

أحمد رمزي

لا يمكن الحديث عن هذا الموضوع، وفي هذا المقام، إلا مختصراً، لأنه طويل عريض، وتتخلّله أحداث سياسية وحساسيات عقديّة. وسأكتفي بالحديث عن محطات الكبرى، وسأغفل عمداً انتقال الطباعة من أوروبا إلى العالم الإسلامي تجنباً للخوض في موضوع آخر له بيئته وظروفه الخاصّة.

أبادر إلى القول بأن الطباعة العربيّة في أوروبا شقّت طريقها بعُسْر شديد، إذ كان القاتيكان لا يرى في الطباعة إلاّ ما يخدم مصالح الكنيسة، هذا إلى تزاخم الصراعات السياسيّة القائمة بين البلدان الأوروبيّة التي كانت تهادن الكنيسة أحياناً وتتجاهلها أحياناً أخرى. لذلك سيكون بالضرورة الحديث عن الطباعة العربيّة مواكباً للحديث عن الأحداث السياسيّة والدينيّة التي كانت تعصف بالقارّة الأوروبيّة.

* * *

ازدهرت الحضارة الإسلاميّة حتى نهاية العصر الوسيط، ثم تراجعت فكرياً وسياسياً وجغرافياً، وأخذت الحضارة الأوروبيّة تفيق من مرقدّها وتبحث

عن أصولها ابتداءً من القرن الثاني عشر للميلاد، ثم ظهرت معالمها اللافتة للانتباه في القرن الخامس عشر الممهد لعصر النهضة الأوروبية.

أهم حدث تاريخي غير مجرى الفكر في بداية عصر النهضة الأوروبية هو اختراع «يوهانس غوتنبيرغ» Johannes Gutenberg للمطبعة في سنة 1455، أي قبل سقوط غرناطة بسبع وثلاثين سنة. وقبل أن أعود إلى هذا الموضوع بعد قليل، اسمحوا لي أن أذكر بأحداث طرأت في القرن الخامس عشر :

1 - ففي سنة 1453 فتح الأتراك القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الثاني، الملقب بالفاتح، وانتهت بذلك الأمبراطورية البيزنطية بعد ألف عام من ظهورها. وكان لهذا الحدث الأثر العميق في أوروبا المسيحية، فدقت أجراس الخوف من موسكو شرقاً إلى باريس غرباً.

- وفي سنة 1455 أخرج «يوهانس غوتنبيرغ» Johannes Gutenberg إنجيلاً مطبوعاً بالحروف المعدنية المنقوشة على الفولاذ بعد أن جرب الحروف الخشبية.

وفي سنة 1473 طبع باللاتينية الكتاب الخامس من «القانون في الطب» لابن سينا، وهو من ترجمة شيخ المترجمين «جيرار دو كريمةون» Gérard de Crémone.

وفي سنة 1492 انهارت مملكة غرناطة وانتهى الوجود الإسلامي في الأندلس.

وفي سنة 1494 قام العالم الإيطالي «ألدو مانوسيو» Aldo Manuzio بإنشاء مطبعة في مدينة فينيسيا بإيطاليا، طبع فيها الآثار الكلاسيكية اليونانية واللاتينية ومؤلفات «دانتي» Dante، صاحب «الكوميديا الإلهية» «وبيطرارك» الذي يعد من المهيين لعصر النهضة الأوروبية، وقد كان ألدو هذا أول من صنع الحروف المائلة Italiques. وكان مترجماً وبارعاً في النحو اللاتيني.

لا شك أن اختراع المطبعة يعدّ من الفتوحات العلمية الكبرى، إذ مكّنت من إخراج الكتاب ودفعه إلى الجمهور بأعداد كثيرة خالية من الأغلاط التي كانت تأتي على أيدي الورّاقين والنسّاحين، ذلك أن الحروف المطبعية المصفّفة مرة أولى باتقان تضمن الجودة في كل ما سيُطبع فيما بعد سواء بمئات الكتب أو بالآلاف.

كانت قد ظهرت في إيطاليا صناعة الكاغد سنة 1226، ثم ظهرت في مدن أخرى أوروبية بعد أن كان الكاغد يُجلب من سمرقند وبغداد ودمشق وفاس وشاطبة، بل صارت أوروبا تصنع الكاغد وتصدره إلى المدن الإسلامية العريقة في صناعته. ولولا الكاغد لما استطاع كوتنبرغ أن يطبع النسخة الأولى من الإنجيل، ولما استطاعت الطباعة أن تزدهر في أوروبا بعد.

في هذا القرن الخامس عشر، كانت المكتبات الخاصة والجامعية عامرة بما ترجم من قبل من العلوم العربية إلى اللاتينية والعبرية، في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها، لكن تنقصها الكتب العربية لأن مستوى تعلّم اللغة العربية آنذاك كان ضعيفاً.

ثم سعى العلماء الأوروبيون المتخصّصون في اللاتينية والعبرية والسريانية والكلدانية، وهي لغات ما زالت آنذاك شائعة بين مسيحيي المشرق، أقول سعوا إلى تعلّم اللغة العربية وطباعة نصوصها انطلاقاً من النصوص الأصلية أو مترجمة من اللاتينية. وكانت المخطوطات العربية تردّ على أوروبا بوساطة السفارات المعتمدة في القسطنطينية أو الأساتذة المهتمّين بالعربية أو على يد سماسرة متجولين.

وكانت أوروبا في ذلك العهد تقف من الإسلام موقف العداء والحذر، تغذّيه ذكريات الحروب الصليبية، ويؤجّجه ما كان باقياً من الحضور الإسلامي في

الأندلس، ثم جاء سقوط القسطنطينية ليعدّ من قبل المسيحيين ضربةً عنيفة. إلا أن هذا الموقف من الإسلام كان ممزوجاً بشيء من الانبهار لقدرات المسلمين السابقة أيام تفوّقهم، والباقية المتجلية فيما خلفوه من مؤلفات في العلوم ومن إبداعات في الآثار العمرانية.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن الطباعة ظهرت أولاً في الصين، ثم في الأندلس كما جاء في ترجمة أبي بكر القلوسي في كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» لابن الخطيب، لكن حتى لو قبلنا بهذه الأقوال فإننا لا نتوفّر على أدلة قطعية. ثم إن الطباعة لم تبرز طوال القرون التي سادت فيها الحضارة الإسلامية بتفوّقها في العلوم والابتكارات الآلية وبقيت تصدر فيها الكتب على أيدي الورّاقين والنساخين كما نعلم.

ويُرجّح أن أوّل كتاب نشر كان في الأندلس بعد سقوط غرناطة. فقد رأى أسقف هذه المدينة المفقودة فرناندو دي تلافيرا Fernando De Talavera أن تنصير الموريسكيين واجب ولا يمكن أن يتمّ إلا إذا عرف الرهبان ورجال الكنيسة العاملون في غرناطة اللغة العربية. لذلك نشر الراهب الإسباني بيدرو دي الكالا Pedro De Alcala أول كتاب في إسبانيا طبع بالقشتالية والعربية سنة 1505 بالحروف الخشبية، لتدريب المنصرّين الإسبان على اللغة العربية وتمكينهم من مجادلة الموريسكيين وإقناعهم «بصحّة المسيحية وفساد ملّتهم الإسلامية». ثم صدر في سنة 1566 كتاب «العقيدة النصرانية» مطبوعاً باللغتين العربية والقشتالية، وهو من تأليف رئيس أساقفة بلنسية مارتين بيريس دي أياالا Martin Perez De Ayala. وتوالى الكتب هكذا إلى أن قرّر الملك الإسباني فيليبي الثالث Felipe III إخراج الموريسكيين من الأندلس نهائياً في سنة 1609. وقد سجّل نفى الموريسكيين شاهد عيان هو أحمد بن قاسم الحجري الهارب من الأندلس، وذلك في كتابه «ناصر الدين على القوم الكافرين» الذي

قام بتحقيقه وترجمته إلى الإنجليزية الأستاذ قاسم السامرائي، الأستاذ في قسم الدراسات الشرقية وكلية العقيدة سابقاً بجامعة ليدن بهولندا.

كان القاتيكان يرى ضرورة ضمّ المسيحيين جميعاً إلى الكنيسة البابوية، أي جعلَ الموارنة، والأرثودوكس، والنساطرة، واليعاقبة، والأقباط وسواهم من الأقليات المسيحية المشرقية تحت وصاية القاتيكان خوفاً من تأثرهم بالإسلام بعد سقوط القسطنطينية، ومن انضمامهم إلى العقيدة البروتستانتية. لذلك أنشأ القاتيكان مطبعة الكلية اليسوعية في روما بأمر من البابا بيوس الرابع، وأصدر منها في سنة 1566 أول كتاب بالعربية في إيطاليا هو كتاب «اعتقاد الأمانة الأرثودوكسية، أمانة روما» وهو من تأليف إليانو Eliano اليهودي المتنصر، ثم أنشئت في روما للغرض نفسه مطبعة ميديتشي Medici بعد توحيد الكنيستين القاتيكانيّة والمارونية. وأمر البابا غريغوريوس الثالث عشر Grégoire XIII بتأسيس الكلية المارونية في روما لتعليم المنصرّين الأوروبيين اللغات الشرقية، وتعليم نصارى المشرق اللغات الأوروبية خصوصاً منهم الموارنة. وقد لعب المارونيون دوراً خطيراً في هذه الحركة بقيادة اثنين من رهبانهم هما جبرائيل الصهيوني Gabriel Sionite ويوحنا الحصري Jean Hesronite.

كان القاتيكان ينظر إلى الحرف العربي بحذر شديد، وكان يسعى إلى احتكاره ليستعمله في مطابعه لأغراض تنصيرية، لكنه سينتسكس من جرّاء أحداث تراكمت ضدّه في وقت واحد أهمّها :

(1) «صكوك الغفران» التي قرّر البابا ليون العاشر (يوحنا ميديتشي) بيعها لمن يطلب الغفران من أبناء الكنيسة الكاثوليكية. وكلّف البابا رجال الكنيسة بتنفيذ هذا القرار كلما اتّاهم أحد من ملّتهم واعترف بذنوبه طلباً للغفران. وقصد البابا من هذه المبادرة البابوية جمع المال الكافي لبناء كاتدرائية القديس بطرس بالقاتيكان.

(2) رأت نخبة من المسيحيين أن هذه المسألة تُعدّ شططاً وخروجاً عن روح الديانة المسيحية، ومن هنا نشأت حركة «الإصلاح» مستهدفة الرجوع إلى الأصول ومناهضة الكنيسة الرسمية، وكان على رأس هذه الحركة المتخصص الألماني في اللاهوت والفلسفة مارتان لوتير Martin Luther الذي أعلن معارضته لصكوك الغفران، وانتقد الكنيسة بشدة في بيان عنوانه : «إلى النبلاء المسيحيين الألمان»، جاء فيه أنه لا يخضع إلا لما جاء في النصوص المقدسة. ثم أخذ يترجم الإنجيل إلى الألمانية الدارجة لتقريب تعاليم الإنجيل من عامة الشعب الألماني. وجاء ردّ فعل الكنيسة شديداً، إذ أعلنت طرد لوتير من المسيحية وعدته مارقاً.

أخذت حركة «الإصلاح» تتقوى وتعبّر جهاراً عن رفضها للبابا والكنيسة الكاثوليكية. ويتزعم حركة «الإصلاح» هذه رجال لهم دراية بالعلوم الدينية والفلسفية، وكثير منهم كانوا يعدّون من النخبة. فحاولت الكنيسة الكاثوليكية متابعتهم فلجأوا إلى شمال أوروبا واستقروا في هولندا وألمانيا والبلاد السكندنافية.

بل إن مبادئ لوتير وصلت إلى روما حيث نشبت اضطرابات مات فيها الناس وأحرقت المساكن.

تفسّر هذه الأحداث التطور الفكري الذي حصل في أوروبا فيما بعد. ففي جنوب أوروبا بقيت الغلبة للفكر الكاثوليكي التقليدي الذي يعدّ البابا نائباً للمسيح عيسى بن مريم، يتيح له منصبه حقّ التكفير والغفران، قاعداً في قمة نظام هرمي يتمثّل في الإكليروس، ويصدر الفتاوى، وله السلطة العليا في كل ما يهمّ حاضر ومستقبل الكاثوليكية ورجالها وأتباعها.

وفي شمال أوروبا، لجأ كثير من الإصلاحيين التابعين للمذهب البروتستانتي. هؤلاء لا يتفقون مع الكاثوليكية في عبادتها لمريم العذراء، ولا يقولون بعصمة البابا ولا بالإكليروس التابع له، ولا بزخرف القدّاسات

الكاثوليكية. فالبروتستانتية أقرب إلى البساطة والفطرة، لكن في صرامة في العمل والفكر، ورهبانهم يتزوجون ويلدون، وشعائهم الدينية تؤدي في معابد بسيطة.

لكن الكاثوليكية والبروتستانتية، رغم تضادهما، تشتركان في أمرين هما اكتساح مواقع التأثير ما أمكن، ونشر عقديتيهما في أوروبا وفي ديار الإسلام.

إن العداء للإسلام متجذر في جنوب أوروبا، إذ فيه أسست محاكم التفتيش ضد المسلمين في الأندلس وصقلية، وبقي هذا الجنوب الأوروبي حذراً من طباعة القرآن الكريم. والفاثيكان سخر الحرف العربي لطبع التعاليم المسيحية، فأصدر كتب العبادات، والأنجيل الموجهة إلى المسيحيين العرب في المشرق، مستعيناً بالموارنة الوافدين من لبنان خاصة، ومن أشهر الأسر المارونية التي أعانت الكنيسة في خطتها أسرة آل السمعاني الذين تقلدوا مناصب دينية عالية في روما. لقد كان هؤلاء يتقنون اللاتينية والعربية واللغات الشرقية القديمة، وكانوا صلة وصل بين الفاثيكان وبين المسيحيين المشرقيين. ومن المصادفات الغريبة أن هذه السياسة أدت إلى انتشار الحرف العربي المطبعي رغم أنه استخدم لأغراض مسيحية صرفة، وسيضاف إلى هذه المفارقة ما طرأ من تقلبات سياسية حصلت في أوروبا لا أساس دينياً لها، بل سياسياً صرفاً.

ذلك أن تزايد أطماع الملك شارل الخامس (Charle Quint) الذي يحكم ألمانيا وإسبانيا وهولندا وأطرافاً من أمريكا اللاتينية، جعلت الملك الفرنسي فرانسوا الأول François I° يتحالف مع السلطان العثماني سليمان القانوني الذي احتلت جيوشه البلقان ودخلت مدينة بيلغراد، واندفعت شمالاً إلى مدينة قيينا لمحاصرتها في سنة 1529 دون أن تُفلح في احتلالها. لقد كانت الدولة العثمانية وقتئذ أكبر قوة عسكرية في البر والبحر، وكان تحالف فرنسا مع العثمانيين يرمي إلى تطويق أطماع شارل الخامس الذي لقب نفسه رئيساً للأمبراطورية المقدسة، وكان هدفه إخضاع أوروبا كلها.

فتحت فرنسا سفارتها في إسطنبول تتويجاً لتحالفها مع الباب العالي، وتغيّرت نسبياً المعادلة التي كانت تتحكّم من قبل في العلاقات بين الإسلام والمسيحية، لاسيما بعد أن ظهرت في القاتيكان علامات الضعف من جرّاء حركة الإصلاحيين البروتستانت من جهة، وجمود الفكر الكاثوليكي من جهة أخرى.

هذه الأحداث السياسية والدينية حاصرت الحرف العربي مدة طويلة، ولم يستطع المثقّفون الأوروبيون الإقدام على اصطناع الحروف العربية رغم اقتناعهم بضرورة نشر اللغة العربية وعلومها، في وقت يرون فيه الإسلام يعود مرّة أخرى إلى أوروبا بعد سقوط القسطنطينية والبلقان في أيدي المسلمين. وهكذا حيل بين الحرف العربي وبين وصوله إلى المطابع. أما الحرف اللاتيني فقد بقي حراً طليقاً، أنشئت له المطابع في مدن أوروبا وأخذت تطبع باللاتينية كل ما لا يتعارض مع التعاليم المسيحية.

أرسل الملك الفرنسي فرانسوا الأول السيد لافوري La Foret سفيراً إلى القسطنطينية ومعه أستاذ اللغات الشرقية غليوم پوستيل Guillaume Postel المشهور بدعوته إلى دراسة العربية للإحاطة بعلومها التي تعدّ جزءاً هاماً في التراث الإنساني، وكان پوستيل يدرّس العربية واليونانية والعبرية في الكوليج دو فرانس Collège de France الذي أنشأه الملك فرانسوا الأول في سنة 1538، وبقي إلى الآن مفتوحاً لجمهور المتقّفين يصغون فيه إلى دروس أكبر العلماء الفرنسيين. وأصدر پوستيل كتاباً في النحو العربي بالحروف العربية جاء في مقدّمته أنه لا يمكن لمن يريد اكتساب المعرفة أن يجهل اللغة العربية. وختم كتابه هذا بسورة «الفاتحة» مع ترجمتها اللاتينية. وهكذا انفتحت أمام العربية وحرفها آفاق جديدة بعد الحصار الذي ضربته الكنيسة على الطباعة العربية طوال سنين، إذ لم يُنشر بالعربية منذ مائة عام سوى ثلاثة مؤلّفات، بينما صدر باللاتينية، في مدينة فينيشيا وحدها أربعون كتاباً من مؤلّفات ابن سينا، وكتابين اثنين بالعبرية

لابن سينا أيضاً وابن رُشد، وبعض الترجمات لـ «جيرار دو كريمون» Gérard de Crémone، أكبر تراجمة طليطلة في القرن الثاني عشر.

وفي هذا النصف الأول من القرن السادس عشر كانت المخطوطات العربية نادرة في أوروبا، وكانت مكتبة «بَلُوا» بفرنسا، وهي من أكبر المكتبات وقتئذ، تملك ست مخطوطات فقط، منها أربعة مصاحف. أما مكتبة القاتيكان فلم تغتن بالمخطوطات العربية إلا في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وكان لابد لمن يريد قراءة هذه المخطوطات أن يكون متقدماً في اللغة العربية ومتخصصاً في علومها كالفلك والحساب والجغرافيا وعلوم أخرى نبغ فيها المسلمون وألقوا. وفي هذا القرن صدر كتاب «وصف إفريقيا» باللغة الإيطالية لمؤلفه الحسن بن محمد الوزان الزياتي المعروف بـ «ليون الإفريقي» الذي تنصّر أثناء مقامه في روما قريباً من البابا ليون العاشر، وفي صحبة البطانة البابوية من كرادلة وعلماء في اللاهوت والفلسفة. طُبِع وصف إفريقيا بالإيطالية كما أسلفنا في سنة 1550 بعد أن تمّ تأليفه في سنة 1526.

وكان الحسن بن محمد الوزان يدرّس العربية في روما، وألّف معجماً ثلاثياً عربياً عبرياً - لاتينياً أهداه لصديقه طبيب البابا بولس الثالث الذي خلف ليون العاشر، لكن هذا المعجم لم يطبع. وغادر الوزان روما في سنة 1550 قاصداً تونس حيث استقرّ نهائياً.

وجاءت سنة 1578 التي هُزم فيها الجيش البرتغالي ومات قائده الملك سيباستيان في معركة وادي المخازن. كان لهذا النصر المغربي وقع شديد على أوروبا المسيحية. وكان الجيش العثماني في الوقت نفسه يتوغّل في جورجيا، بينما كان البروتيستان يثبتون ركائز عقيدتهم في مجمعهم المنعقد في مدينة ويتنبرك الألمانية Wuntberg. اجتمعت هذه الأحداث لتغضب البابا غريغوريوس الثالث عشر فأمر بإتلاف كل ما لا يتفق مع العقيدة الكاثوليكية من كتابة ونشر. ثم

إنه أنشأ مطبعة في القاتيكان ووضعها بين أيدي قساوسة أوفياء منهم فردناند دي ميديتشى المتأصل من أسرة عريقة في فينيتشيا. وكلف البابا فرنسياً مشهوراً بالنقش على المعدن هو روبير كرانجون Robert Granjon بصناعة حروفها، وهكذا ظهر في الطباعة الأوروبية الحرف العربي الميديتشى، وبقي سرّاً محفوظاً ليُستعمل فيما يُقرّه القاتيكان وحده.

توفي البابا گريگوريوس الثالث عشر وخلفه البابا سيكست الخامس Sixte V وتبعه في سياسته، وظهرت في أول عهده الأنجيل باللغة العربية التي تتميز بعبارة مطبوعة على الكتب هي : «مطبوعة بمدينة روما بطبع گاران دوقا»، وگاران دوقا تعني Grand Duc، أي (الدوق الأكبر)، وهو لقب يمنح لبعض النبلاء. وهذه الأنجيل العربية توجه إلى المسيحيين العرب في المشرق.

وطبعت الأنجيل مرة أخرى بالعربية في سنة 1590 بمطابع ميديتشى وأخرج منها 1500 نسخة، تلتها طبعة ثالثة في سنة 1591 بالعربية واللاتينية في 3500 نسخة ما زالت توجد نسخ منها بالمكتبة الوطنية الفرنسية.

ثم فكر القاتيكان في طبع الكتب التي تمكّن من تعليم اللغة العربية للرهبان لأغراض تنصيرية. ففي سنة 1592، أي بعد 100 سنة من سقوط غرناطة، نشرت مطبعة ميديتشى «كافية ابن الحاجب». ثم طبعت في السنة نفسها كتاب الأجرومية لابن أجروم الصنهاجي المتوفى في فاس سنة 1323 ميلادية، وقد صدر الكتاب بعنوان باللاتينية للتعريف به.

وبعد أن استقرّ الحكم المسيحي في صقلية طلب الملك روجر الثاني ملك صقلية من الشريف الإدريسي في سنة 1592 أن يصنع له خريطة للكرة الأرضية مصنوعة من الفضة ففعل، ورسم على هذا البلدان بمدنها وأسمائها، ثم أكمل عمله بتأليف كتابه : «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الذي سُمي أيضاً بـ «كتاب الروجري» نسبة إلى روجر الثاني. وطُبع هذا الكتاب بحروف كرانجون

كغيره من الكتب السابقة. وكان أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي السبتي قد درس في قرطبة، ثم جال في بلدان البحر المتوسط، بل وصل إلى انجلترا. إنه جغرافي وخرائطي وشاعر وعشّاب.

ثم قامت مطبعة ميديتشى بطبع ثلاثة أجزاء من كتاب «القانون في الطب لابن سينا» و«كتاب النجاة» الذي هو جزء من كتاب «الشفاء» لابن سينا، وكان ذلك في سنة 1593. والعنوان العربي الكامل الذي تحمله مجموعة ابن سينا هذه هو : «كتاب القانون في الطب للشيخ أبي علي ابن سينا مع بعض تأليفه، وهي علم المنطق وعلم الطبيعى وعلم الكلام». واستعملت المطبعة حروف گرانجون التي وفّقت بجمالها في إخراج هذه الكتب.

وفي سنة 1594، أي بعد مائة سنة وسنتين من سقوط غرناطة، طبعت المطبعة الميديتشية في روما «كتاب تحرير أصول إقليدس» الذي ترجمه من اليونانية إلى العربية العالم الفارسي نصير الدين الطوسي، الذي كان فلكياً لدى وزير من وزراء تيمورلنك بن جنكيس خان بن هولاكو. ونذكر هنا أن ابن خلدون والطوسي كانا من العلماء المسلمين القلائل الذين خلى سبيلهما تيمورلنك. حضر نصير الدين الطوسي سقوط بغداد على أيدي المغول، وترجم عدة كتب في الرياضيات من اليونانية إلى العربية. وأذكر هنا أن «كتاب تحرير أصول إقليدس» طبع طبعة حجرية في فاس بأمر من السلطان مولاي الحسن الأول في سنة 1293 هـ/1893م.

هذه الكتب العلمية العربية طُبعت كلها بحروف روبير گرانجون الصائغ والنقاش الفرنسي الذي صنع الحروف العربية في ثلاثة أحجام : الحجم الكبير استعمل في عناوين الكتب. والحجم المتوسط في أسماء الأبواب والفصول والحجم الصغير في المتن.

وتوجد هذه الحروف في متحف المطبعة الوطنية بباريس، وعددها 283 حرفاً من الفولاذ في الحجم الصغير، و356 حرفاً في الحجم الكبير، و353 في الحجم المتوسط. هذا وقد توقّفت المطبعة المديتشية عن العمل في سنة 1595، آخر القرن السادس عشر.

في هذه السنة ظهرت في هولندا حروف عربية صنعها فرانسيس رافلانك (Francis Rapheleng) الذي كان مديراً لمطبعة ليدن (Leyden) وأستاذاً للعبرية في الجامعة. كان رافلانك يتقن الآرامية، والسريانية والفارسية، وأخذ يتعلّم العربية. وتقول السيدة بلانيا المشرفة قديماً على القسم العربي للمكتبة الوطنية الفرنسية إنه كان يتدرّب على العربية بدأه على قراءة القرآن وجغرافية الإدريسي. ثم إن هولندا تحرّرت من حكم شارل الخامس وصارت جمهورية يعيش أهلها في بيئة تتميز بالتفتّح والتسامح والإقبال على العلوم. وتأسّست جامعة ليدن في سنة 1575 وكان الطلبة يُقبلون عليها من الداخل والخارج. وكانت علاقات هولندا بالمغرب وطيدة. وبما أن البروتستان الهولنديين تحرّروا من سيطرة الكنيسة البابوية، فلا شيء كان يمنعهم من بيع السلاح للمسلمين، بينما بقي الكاثوليك في أوروبا مقيدين بأمر البابا ألا يبيعوا السلاح للمسلمين الأعداء. ولم يُطبع بالعربية شيء يُذكر في حياة رافلانك. لكن حروفه بقيت في هولندا تنتظر من يستعلمها ويقدر على تمويل إصدار الكتب المطبوعة بها.

وفي ألمانيا ظهر بطرس كيرستن (Peter Kirsten)، وهو من أسرة نبيلة تهتم بعلوم زمانها. واصطنع كيرستن حروفاً عربية مشكولة طُبِعَ بها في سنة 1609 «الكتاب الثاني لقانون ابن سينا» مشفوعاً بمعجم للأعشاب الطبية، ثم طبع الأجرومية في سنة 1610. وأصبح كيرستن شيخ الأساتذة الألمان المستعربين. كان يرى أن الحضارة الإسلامية تمكّن من فهم الكون في تماسكه وتناغم أطرافه

وتساكن مخلوقاته، وكان يطمح إلى طبع المزيد من الكتب العربية لولا أن أوروبا صارت مسرحاً لحروب وصراعات سياسية ودينية لا تُعين على نشر العلوم وتنشيط الكراسي الجامعية. لقد توالى الأحداث فزال الحكم الإسباني من هولندا في سنة 1609، ونُفذ إخراج المورسكيين من الأندلس بأمر من فيليبي الثالث، واغتيل ملك فرنسا هنري الرابع Henri IV الذي شبَّ على العقيدة البروتستانتية وصار زعيمها في بلد تجذّرت فيه الكاثوليكية وترسّخت فيه ذكريات الحروب الصليبية، واندلعت حرب الثلاثين سنة في عام 1618 انطلاقاً من ألمانيا بين البروتستانت والكاثوليك. وكان لكل طائفة أعوان في الداخل والخارج. في هذه البيئة بقي كيرستن أستاذاً للطب في جامعة أوبسالا Upsala بالسويد، وانتهى إنتاجه المطبعي.

ثم ظهر في هولندا أكبر مستعربي زمانه. إنه طوماس إربينيوس Thomas Erpenius المتوفى سنة 1624. درس هذا الرجل في جامعة ليدن واهتم باللغة العربية، ثم رحل إلى جل المدن الأوروبية. والتقى بمسلمين ويهود في فينیشيا بإيطاليا، ثم أصبح المترجم الرسمي من العربية وإليها في هولندا. وألف أول كتاب في النحو موجّه للأوروبيين باللغتين العربية واللاتينية. وطُبِع الكتاب بحروف رافلانك المذكورة سلفاً. وكان لكتاب النحو هذا تأثير كبير على الأوساط المثقفة. ثم إن البروتستانت الهولنديين أخذوا يطبعون الكتب المقدسة المسيحية، وأثار هذا العمل حفيظة القاتيكان الذي أصبح يرى ما كان يخشاه من قيام البروتستانت بمزاحمته في طبع الكتب العربية، واتّصلهم المباشر بالإمبراطورية العثمانية، وبلاد شمال إفريقيا والمغرب خاصة.

تعلم إربينيوس العربية في جامعة باريس على يد طبيب الملك هنري الرابع، ثم على يد إسحاق كازوبون Isaac Casaubon الذي مكّنه من الانتفاع بكتبه التي كانت تزخر بها مكتبته. والتقى في باريس بعالم مصري قبطي يدعى يوسف بن أبي دقن، وأصبح من أصدقائه المقربين فأخذ يتخاطب معه بالعربية

ويُكاتبه بها. وقرأ «الأجرومية» و«الكافية» و«العوامل المائة» المنسوب لعبد القادر بن عبد الرحمن الجرجاني، وهو كتاب في اللغة، ثم التقى بأحمد بن قاسم الحجري الأندلسي، صاحب كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين»، وكان أحمد بن قاسم يشتغل بالتجارة، فعاشه ليتخاطب معه باللغة العربية وحدها. وكانت الصحبة بين الرجلين سبباً في معرفة إربينيوس بحقيقة الإسلام قرأناً وسنة. وعيّن إربينيوس أستاذاً للغة العربية في جامعة ليدن، وبقي في منصبه هذا إلى أن مات وعمره أربعون سنة.

أما مؤلفات هذا المستعرب الهولندي الكبير ومطبوعاته فهي كثيرة ألخصها فيما يلي :

- تحقيق ونشر مائتي مثل من الأمثلة العربية مجهولة المؤلف مرفوعة بترجمتها اللاتينية سنة 1615.

- كتاب في النحو العربي يعدّ أول مؤلف يُعرض فيه النحو العربي بمنهجية خاصة تروق الأوربيين. بقي هذا الكتاب طوال قرنين مرجعاً أساسياً لتدريس النحو في أوروبا، وطُبِع ستّ مرات.

- نشر «سورة يوسف» بالعربية المشكولة مع ترجمة لاتينية.

- نشر النص العربي المشكول للأجرومية. وكانت الأجرومية قد نشرت مرّات، لكن بدون شكل.

- نشر «المائة عامل» في اللغة للجرجاني البصري.

- نشر «أمثال لقمان» بالعربية مع تعليقات عليها باللاتينية.

- نشر التوراة والأنجيل بعد ترجمتها إلى العربية، قصد إرسالها إلى القسطنطينية وتوزيعها على المسيحيين. وهنا يظهر مرة أخرى التنافس على مسيحيي المشرق بين هولندا البروتستانتية وبين القاتيكان.

كان أربينيوس يُشرف على المراسلات التي كانت تتم بين هولندا والسلطان السعودي مولاي زيدان. وفي سنة 1622 أرسلت هولندا السيد ألبيرت رويل Albert Ruyl لاعتماده سفيراً لدى السلطان مرفوقاً بأنجب تلامذة أربينيوس، وهو جاك غوليوس Jacques Golius. واستقبل السفير الهولندي بحفاوة في القصر بمراكش، وفي أثناء هذا الاستقبال، أهدى السفير إلى السلطان نسخة عربية من الإنجيل الذي طبعه إربينيوس !

وتوثقت العلاقة بين المغرب وبين هولندا إلى حد أن القراصنة الهولنديين كانوا بلجؤون إلى المراسي المغربية، ثم إن الأمير الهولندي موريتس عرض عن المغرب وعلى الباب العالي في سنة 1615 مشروع حلف عسكري يضم الدول الثلاث للقيام باسترداد الأندلس من الإسبان. ولم يتحقق هذا الحلف لانشغال العثمانيين بحرب البلقان والمغرب بالفتن الداخلية. ومن المصادفات العجيبة أن تاريخ يومنا هذا يوافق مضي أربعة قرون على بداية العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وهولندا، وتقام في هذه الساعة التي نجتمع فيها هنا حفلة رسمية في مدينة لاهاي لتخليد الذكرى، يمثل فيها المغرب صاحبة السمو الملكي للأمرم شقيقة جلالة الملك محمد السادس ملك المغرب.

يُعدّ إيربينيوس أكثر المستعربين تأثيراً بكتابه في النحو، إذ بقي كتابه هذا فريداً إلى أن ظهر في القرن الثامن عشر المستعرب الفرنسي سيلفستر دي ساسي (Sylvestre De Sacy)، ونشر في سنة 1810 بالعربية في جزأين كتاباً في النحو العربي مصحوباً بعلم العروض، سماه «التحفة السنية في علم اللغة العربية»، أعاد نشره المعهد العربي بباريس.

وأقف هنا في هذا الجزء الأول من ظهور الطباعة العربية في أوروبا وأكتفي بسرد المؤلفات العربية التي طبعت في القارة الأوروبية إلى نهاية القرن السابع عشر لئلا أغفلها في القسم الثاني من هذا الحديث الذي أنوي الكتابة فيه فيما بعد إن شاء الله.

- عاد جاك غوليوس من سفارة بلاده إلى هولندا ومُنح كرسي اللغة العربية في جامعة ليدن ونشر «لأمية العجم» للطغرائي، و«كتاب عجائب المقدور في أخبار تيمور» لابن عربشاه سنة 1636. وأعاد نشر «كتاب النحو العربي» وأمثال لقمان الذين طبعهما أستاذه أربينيوس، و«كتاب محمد ابن كثير الفرغاني في الحركات السماوية».

- نشر يوحنا فابريسيوس تلميذ غوليوس، المقامة الأولى من مقامات الحريري وقصيدتين لأبي العلاء المعري، وابن الفارض سنة 1638.

- في سنة 1645 في عهد الوزير مازاران في فرنسا ظهرت طبعة الإنجيل المتعددة اللغات وهي اللغات السبع: العربية والعبرية والسامرية والكلدانية واليونانية والسريانية واللاتينية.

- وفي إنكلترا نشر إدوارد بوكوك Edward Pocock وهو من كبار المستعربين الأوروبيين في القرن السابع عشر كتاب «حي بن يقضان» لابن طفيل سنة 1671.

ثم استمر فيما بعد تحقيق الكتب العربية ونشرها، فطبع أبراهام هينكلمان القرآن الكريم كاملاً في سنة 1694. وطبعت مقامات الحريري في سنة 1731. ومعلقة كعب ابن زهير في سنة 1748. مشفوعة بمعلقة امرئ القيس. وطبع رايסקه رسالة ابن زيدون في سنة 1755. وطبعت البردة للبوصيري في سنة 1762، وأشعار للمتنبّي في سنة 1765، وكتاب الجذري والحصبة للرازي في سنة 1766، ونوابغ الكلم للزمخشري في سنة 1772، ومقصورة ابن دريد في سنة 1773، والصّاح للجوهري سنة 1776، وطبعت الملكة كاثريئة الكبرى، ملكة روسيا القرآن الكريم سنة 1787، وتاريخ ابن الفدي سنة 1791 الخ...

وستنطلق بعد هذا سلسلة إخراج الكتب العربية مطبوعة في أوروبا، لا سيما في ليدن بمكتبة «بريل» Brill وألمانيا، وذلك على يد مستشرقين كبار ألفت

أذانا أسماءهم، أذكر منهم مثلاً لأحصرأ : أربري، أماري، أمدرون، براون، بروكلمان، توربكه، جب، گولدزيهر، دارينبورگ، دوزي، دوسلان، ويستنفلد، مارگوليوث، مولر، ألدو ميللي، كارلو نالينو، كراكشكوفسكي، شاخت، فلایشير، فليش، بلاشير، دوساسي، وغيرهم كثير، فيهم المشارك في علوم مختلفة، وفيهم المتخصص في الطب أو الفلسفة أو الآداب واللغة أو الفلك أو الجغرافيا الخ ...

هذا وكان القرن الثامن عشر زمان الأفكار الحرة الممهدة للثورة الفرنسية ، وبدأ تراجع سيطرة الكنيسة المسيحية على الفكر وإنتاجه، وصارت الجامعات الأوروبية تزخر بكراسي اللغة العربية، وتزايد عدد الكتب العربية التي أخذت طريقها إلى المكتبات الأوروبية، وفتحت مكتبة الإسكوريال أبوابها للمتقنين والباحثين بعد أن كان الكتاب العربي في إسبانيا المسيحية مادة محظورة. ثم جاء القرن التاسع عشر متميزاً بتحقيق كتب التراث العربي تحقيقاً علمياً دقيقاً أظهر فيه المستشرقون الأوروبيون الصبر والدقة وطول النفس، وحل الاستشراق محل الاستعراب. وتقدمت أوروبا في العلوم والتقنيات والصناعات المختلفة، وانتشرت دور النشر بمطابعها، وانهارت رقابة الفاتيكان على الطباعة، وتطور الفكر في كل المجالات فضلاً عن ظهور علوم أخرى إنسانية وتكنولوجية، وازدهر الفكر السياسي والمؤسسات القانونية والديموقراطية، إلى جانب المؤسسات العسكرية والاستراتيجية، وأنشئت الأكاديميات، وتأسست الدولة الوطنية وحلت محل الأمبراطوريات، وانتشر التعليم وظهرت كتب القصة والمسرح والفكر في مختلف مجالاته، وظهرت الصحافة من يوميات وأسبوعيات وشهريات وحوليات، واتسعت أوروبا حضارياً إلى أمريكا وما وراء البحار، بقيت البلاد غير الأوروبية متخلفة اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً، فظهرت في أوروبا الأطماع الرامية إلى استعمار هذه البلدان المتخلفة والتي تمثل أسواقاً لترويج البضاعات ومجالاً للنفوذ السياسي والعسكري والاستراتيجي.

وفي كل هذا كان للمطبعة دور في نشر الأفكار وتمجيد الاستعمار قبل غزو الديار!

هذا موجز لقصة ولادة الطباعة العربية في أوروبا وتطورها.

أما ظهور المطبعة في العالم العربي والعالم الإسلامي فكان في مدينة حلب السورية سنة 1706، أي بعد مضي 251 سنة من اختراع كوتنبرك. وأول كتاب صدر من هذه المطبعة الحلبية هو كتيب للمزامير المسيحية.

المصادر

- جوزي بالانيا : الطباعة العربية في الغرب، دار النشر لاروس 1984.
- شنور : المكتبة العربية، هال، ألمانيا 1811، مقتطفات.
- معجم روبير لأسماء الأعلام 1994.
- ندوة تاريخ الطباعة العربية، أكتوبر 1995، أبو ضبي.
- داهل : تاريخ الكتاب، دار النشر بوانتا 1967.